

علم الخليج

بقلم الشيخ سليمان المدني^(١)

طلب مني منذ فترة ليست بالقصيرة أن أكتب عن المرحوم الشيخ علي آل أبي المكارم، لكنني كنت لأتهرب عن الكتابة عنه، لا لشخصه ولكن من حيث شخصيتي أنا المطلوب مني أن أكتب عنه. فالرجل ليس من أعلام القطيف خاصة، أو من أعلام البحرين بل من أعلام الخليج، وهو في غنى عما يكتب عنه أو يقال في فضله، معروفة بين أهل العلم مكانته، بيّنة كما كتب وألف قدرته. وماذا عساني أن أقول عنه في كلمتي، هل سأقول عنه أنه كان فقيهاً تام الملكة قوي الحجة؟ فمؤلفاته تشهد له بذلك وتغنيه عن الشهادة له من بعد وفاته اللهم إلا أن يكون ذلك من باب الاعتراف بالفضل لأهله وقد فعله الأعظم من العلماء.

(١) حجة الإسلام الشيخ سليمان بقية شيخنا المقدس العلامة الشيخ محمد علي المدني والشيخ سليمان أحد الأعلام في الدين والقضاة الأيقاظ في التميز في محكمة الاستئناف العليا في دولة البحرين، له من المؤلفات الإسلامية والمواقف العلمية والإنسانية ما يغنيه عن الثناء والتقديم، حيا الله شيخنا الكبير وأبقاه ذخراً وعزاً في الإسلام والمسلمين وعزّة في المؤمنين آمين.

إنه إمام من أئمة أهل العلم وقدوة في الكلمة الحاسمة تميز بالتقوى
واتصف بتوقد الذكاء وتساوى عنده عدوه ووليّه في فصل الخصومات، وكان
شديداً في ذات الله لا يرهب إلا الله وحده ولا يشك اثنان في عدالته وانه كنز
من كنوز العلم ورصيد في أمة الإسلام والعرب غني بكل فضيلة .

لقد تولى الشيخ المذكور القضاء في البحرين مدة طويلة فما سمعنا عن
سيرته فيه إلا الحسن من النعت والطرف من الأخبار، الدالة على الذكاء
وسرعة البديهة، والتروي في الأمور . ومن ولي القضاء وبقي فيه السنين
الطويلة ثم يخرج عنه وهو سالم من الوصمة، خلي من الشنعة فهو الرجل
الفذ . لا لأن القضاء مزلة فقط ولكن تولى منصب القضاء يجلب الأعداء،
ويطلق الألسنة، فالقاضي دائماً مغضوب عليه من أحد طرفي الدعوى،
مشنوء بلسان من كان الحق خصيمه، لأمر كما قال الشاعر :

إن نصف الناس أعداء لمن ولي الأحكام هذا إن عدل

فالذي يلي القضاء ثم لا تسمع له معيياً، ولا تصيب له قادحاً، تحكم
بلا شك على حسن سيرته، بل قوة سياسته ومدى ترفقه به، خاصة وأن
شيخنا المذكور ولي القضاء في فترة عصيبة، كانت فيها الألسن على
أهل العلم مطلقة وان كانوا في بيوتهم حاملين، وللناس غير مداخلين،
فكيف بمن يخوض عباب الأمور الاجتماعية، ويقوم بالوظائف
الحسبية، وهي تقتضي الضرب على أيدي العابثين، واستخراج الحقوق
للمظلومين .

نعم لقد قام بهذه الوظيفة وأمثالها من الوظائف الاجتماعية الدينية
أفضل قيام وبرهن للأمة بل للأجيال القادمة على ما يجب أن يتمتع به القاضي
المسلم من الحيطة العلمية ومنع أيدي الظلمة أن تصل إلى خيانة الحقوق،

ولم يَمِلْ قطُّ إلى القوة السلطوية أو الفتن بالدنيا الفانية فلم تستطع المبرقات أو المغريات أن تصنع مع هذا الشيخ الإمام شيئاً من لين العود أو إنخفاض الطرف بل سار على خطه المستقيم حتى إعتزل هو نفسه عن القضاء تفرغاً لخدمة الدين والإنسانية، فكانت حياته كلها مليئة بخدماته للرسالة الإسلامية، والإنسانية المظلومة، أخلف الله على الأمة بمثله إنه تعالى على كل شيء قدير .

قرأت للشيخ كتاباً واحداً في الحبوة على أن لشيخنا الحجة كتباً تزيد على خمسة عشر كتاباً في الاستدلال والنقد الذاتي الاجتماعي وفي الأدب المنظوم والمنثور من ديوان شعر وخطب في الجمعيات والأعياد وما جمعه لسلفه الأعظم، ولعل أعظم كتبه دورته الفقهية (الجامع الكبير في الاستدلال) وهذا الكتاب المشار إليه هو الهداية إلى حبوة الميراث بالاستدلال وقد طبع في النجف الأشرف ومع كونه مختصراً في الموضوع بل مختزلاً له وملخصاً لمطالبه، لكنه قد ألم بموضوع البحث من أثرى جوانبه، واستعرض فيه كثيراً من الأقوال شافعاً لها بأدلتها، مع قدرة على الحوار مع أصحابها وهم من كبار الفقهاء بل من أعظم العلماء، والكتاب يكشف عن مدى قوة ملكة مؤلفه وتضلعه في الفن، فقد عالج الموضوع بمنهجية فائقة، وأسلوب واضح لا لبس في عباراته، فهو ينتقل بك من مطلب في المسألة إلى مطلب، ومن قول إلى قول لا تحس فيه بطفرة، ولا يشرد بذهنك فاصل من الكلام الخارج .

نسأل الله أن تكون هذه الآثار الضخمة محفوظة لتظهر في عالم النور في القريب العاجل إنشاء الله تعالى .

رحم الله الشيخ علي ووفق ذريته في السير على منهجه، والاقتفاء لأثره في خدمة العلم والدين .

وختاماً أرجو العذر فلست ممن يقدر على تقديم مثل هذا الشيخ
المذكور وإنما رويت ما سمعت من سيرته العطرة وبينت ما استفدته من
كتابه القيمة.

الفقير إلى الله الغني
سليمان المدني